



العقل العربي 64

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل السادس عشر التحليل النفسي للتغريب

1. عفريت الغرب

ثمة قصة في كتاب (ألف ليلة وليلة) عن صياد سمك فقير لم تحمل له شبكته يوماً غير قمقم (قارورة) من النحاس. وعندما كان على وشك رمي القارورة محبطاً. خطر في باله أن يعرف أولاً ما إذا كان هنالك شيء ذو قيمة داخلها. وكانت فوهة القارورة مغلقة بسدادة مختومة بخاتم الملك سليمان. فأزال الصياد السدادة بحذر. ويا للمفاجأة! خرج من القارورة شيء أشبه بسحابة من الدخان اتخذت شكل عفريت ضخم قوي حام حول الصياد المرعوب. وصاح به: «تهياً للموت. لقد أقفل الملك سليمان علي هذا الإبريق ثم رمى بي في البحر. في البداية عاهدت نفسي بأن أجعل من يحررني أغنى وأسعد إنسان على وجه الأرض. لكنني أصبحت أكثر يأساً وغضباً مع توالي القرون. إلى أن عاهدت نفسي بأن أقتل من يحررني؛ لذلك تهياً للموت». فأجابه الصياد سريع البديهة: «أوه. أيها العفريت العظيم. إذا كان مكتوباً علي أن أموت فسأموت. لكن أخبرني أولاً كيف أمكن أن يحتجز مخلوق عظيم مثلك في مثل هذه القارورة الضئيلة؟ أنا لا أستطيع تصديق أنك كنت فيها بالفعل». قال العفريت: «سأريك أيها الأحمق». ثم تقلص تدريجياً إلى أن أصبح كنفخة من دخان وغاب في القارورة. عندها أسرع الصياد وأعاد إغلاق القارورة وقال للعفريت: «وداعاً يا صديقي. الآن سوف تعود إلى البحر. ولك أن تنتظر ألف سنة أخرى حتى يجده صياد آخر». فجاءه الجواب بصوت لا يكاد يسمع من داخل القارورة: «لا... انتظر... أقسم بالله بأنك إن أخرجتني فلن أؤذيك. وسأحقق كل رغباتك وأبقى عبداً لك طوال حياتك». فوافق الصياد. وأخرجه. وأنجز العفريت عهده بكل إخلاص.

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

أتذكر هذه القصة عندما ألاحظ المواجهة بين العالم العربي والغرب. فالعرب، كذلك، وجدوا في البحر قارورة سحرية، ولم يستطيعوا مقاومة فتحها. فخرج منها شعاع فياض من المنجزات الثقافية الغربية. لكنهم شعروا في الحال أنهم ما لم يتحكموا بهذا الفيضان من الأعطيات الغربية الدخيلة فستختنق ثقافتهم التقليدية الخاصة بهم، وحاولوا بمعسول الكلام أن يقنعوا عفريت الغرب بالعودة إلى القمم. وإجباره على تنفيذ طلباتهم، وتحقيق أمانهم. وتمكينهم من الاحتفاظ بما يرغبون به وترك ما رغبوا عنه؛ لكن خاتم سليمان وجميع التوسلات لم تجد نفعاً، وانخرط الصياد العربي وعفريت الغرب في صراع هائل يجري على المستويين الروحي والمادي في الوقت ذاته. صراع خطره أكبر على الصياد نظراً لأنه لم يكن أبداً على ثقة مما إذا كان يريد هذه الهبات أو لا. أو ما إذا كان وجه العفريت ترتسم عليه ابتسامة حانية أو تجهم استعلاء حين يقدم الأعطيات.

ثمة أغنية جزائرية كتبت كلماتها قرابة العام 1900، يشار فيها إلى الحضارة الغربية بالغول، وهو نوع من الشياطين البغيظة. وفي إحدى نسخ هذه الأغنية نجد وصفاً لغول الغرب بأنه كبير الحجم، هائل القوة، شديد القبح؛ وبالرغم من مقدرته على أداء كافة فنون السحر، فهو مخادع، متوحش، متعطش للثروة، وعلى العكس من عفريت القصة السابقة: غير مؤمن، ينتهك الأعراف الأخلاقية في الإسلام؛ لكن ذلك كله لا يمنع من هزيمة الغول في نهاية الأغنية: ممسوخاً أو قتيلاً. ويكمن الاختلاف بين مفهوم تلك الأغنية عن الغرب وبين مفهومي الخاص في أن الأغنية تنبأ بهزيمته على يد القوى التقليدية في العالم العربي، بينما أرى أن المواجهة الضخمة التي حصلت منذ بداية القرن العشرين تشير إلى أن مثل تلك النتيجة أمر تحوم حوله الشكوك فيه بشدة.